

جغرافية العراق وصناعة الإنسان الأرض بوصفها ذاكرة وسلوكاً ومصيراً

بقلم

الباحثة زينب سلطان احمد

وزارة التربية



مقدمة

ليست الجغرافية مجرد خرائط وحدود وأنهار وجبال، بل هي القوة الخفية التي تنحت طبائع البشر، وتعيد تشكيل انفعالاتهم، وتؤثر في أخلاقهم وأنماط تفكيرهم عبر الزمن، فالأرض لا تمنح الإنسان مكاناً للسكن فقط، وإنما تمنحه أيضاً طريقةً في النظر إلى العالم، وأسلوباً في الحب والخوف والغضب والصبر والكرم، ولهذا قيل قديماً: "الإنسان ابن بيئته"، لأن العلاقة بين الأرض والإنسان ليست علاقة استعمال، بل علاقة تكوين متبادل. ويبدو العراق من أكثر الأمثلة وضوحاً في العالم على هذه العلاقة المركبة، إذ لا يمكن فهم الشخصية العراقية بعيداً عن طبيعة أرض الرافدين، بما فيها من خصوبة وقسوة، ومن وفرة وخراب، ومن تاريخ ممتد بين الحروب والحضارات. فالعراق ليس مجرد وطن جغرافي، بل هو أرضٌ صنعت إنساناً يحمل تناقضات الماء والنار معاً.

الجغرافية بوصفها مُشكِّلاً للسلوك الإنساني

ترى المدرسة الحتمية الجغرافية في علم الاجتماع أن البيئة الطبيعية تؤثر بشكل مباشر في تكوين المجتمعات وأخلاقها، وقد ذهب الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو إلى أن المناخ والطقس يؤثران في طبائع الناس، فالشعوب الحارة- بحسب رأيه - أكثر انفعالاً وعاطفة، بينما تميل الشعوب الباردة إلى الهدوء والانضباط. ورغم النقد الحديث للمبالغة في "الحتمية"، فإن كثيراً من علماء النفس الاجتماعي ما زالوا يؤكدون أن البيئة المكانية تؤثر في تكوين السلوك الجمعي، لأن الإنسان يتفاعل نفسياً مع ظروف العيش، ومع طبيعة الموارد، ومع شكل العلاقة اليومية بالأرض.

وفي العراق، تبدو هذه الفكرة شديدة الوضوح، فبلاد قامت على نهريْن عظيمين مثل دجلة والفرات، عاشت تاريخياً حالة من الوفرة الزراعية والانفتاح الحضاري، مما ولّد قيماً اجتماعية مثل الكرم والتكافل وحب الضيافة، فالإنسان الزراعي بطبيعته يميل إلى المشاركة والتعاون، لأن الزراعة نفسها قائمة على الجماعة وانتظار المواسم وتقاسم الماء.

لكن هذه الأرض ذاتها كانت أيضاً مسرحاً دائماً للغزوات والحروب والصراعات، الأمر الذي خلق في الشخصية العراقية نزعةً دفاعية وحذراً دائماً واستعداداً نفسياً للأزمات.

ولهذا يبدو العراقي عاطفياً إلى حد البكاء، وغاضباً إلى حد الثورة، وكرماً إلى حد التنازل، لكنه في الوقت نفسه يحمل داخله قلقاً تاريخياً مزمناً.

نظرية "الصدمة الجمعية" والأرض العراقية

في علم النفس الاجتماعي، تفسّر "نظرية الصدمة الجمعية" كيف تؤثر الحروب والكوارث الممتدة في الوعي الجمعي للشعوب، فالمجتمعات التي تعيش طويلاً تحت ضغط الخوف والعنف تنتج أنماطاً نفسية خاصة، مثل التوجس، والانفعال السريع، والتقلب المزاجي، والشعور بعدم الاستقرار.

والعراق من أكثر البلدان التي تعرضت لما يسمى "التراكم الصدمي"، فمنذ آلاف السنين، تعاقبت عليه الإمبراطوريات والغزوات والحصارات والانقلابات والحروب والإرهاب والاحتلالات، حتى أصبحت الذاكرة العراقية مشبعة بالخسارات.

وهنا تتدخل الجغرافية مرة أخرى، فالعراق بحكم موقعه المتوسط كان دائماً "معبراً للحضارات"، لكنه كان أيضاً "معبراً للجيوش". فالموقع الذي صنع مجده التاريخي، هو نفسه الذي جعله عرضة للصراع المستمر. إن الإنسان العراقي يعيش على أرض خصبة لكنها مفتوحة، ولهذا تشكلت لديه نفسية تجمع بين حب الحياة والخوف من فقدانها.

البيئة النهرية وأثرها الأخلاقي

يشير عالم الاجتماع العراقي علي الوردي إلى أن الشخصية العراقية تعيش ازدواجية مستمرة بين قيم البداوة وقيم الحضارة، وهذه الازدواجية ترتبط جزئياً بطبيعة العراق الجغرافية؛ فالعراق كان دائماً ملتقى الصحراء بالنهر، والقبيلة بالمدينة، والرعي بالزراعة.

فالبيئة الصحراوية تزرع قيماً مثل العصبية والقوة والصلابة، بينما تزرع البيئة النهرية قيماً مثل الاستقرار والتسامح والانفتاح، ولهذا حمل العراقي داخله هاتين القيمتين معاً، فتراه شديد الحنان وشديد القسوة في آنٍ واحد، متديناً وروحانياً، لكنه سريع الغضب حين يشعر بالتهديد.

ومن الناحية الأخلاقية، فإن قرب الإنسان العراقي من النهر والأرض الزراعية ولّد حساً عالياً بالارتباط بالمكان، حتى أصبحت الأرض جزءاً من الهوية النفسية، ولذلك فإن التهجير أو فقدان الأرض لا يُنظر إليه بوصفه خسارة مادية فقط، بل اقتلاعاً لجزء من الذات.

نظرية "المكان والهوية النفسية"

تؤكد نظريات علم النفس البيئي أن المكان ليس إطاراً محايداً، بل عنصرٌ يدخل في تكوين الهوية الشخصية. فالإنسان يبني ذاكرته وانفعالاته من خلال الأمكنة التي يعيش فيها.

وفي العراق، لا تبدو المدن مجرد تجمعات سكانية، فالبصرة تحمل روح الماء والحنين، والنجف تحمل ثقل الروح والتأمل، والموصل تحمل صلابة التاريخ، بينما تبدو بغداد كأنها صورة مكثفة للعراق كله: مدينة تجمع التناقض بين الشعر والحرب، وبين الفلسفة والدم. إن العراقي لا يسكن المكان فقط، بل يسكنه المكان أيضاً. ولهذا فإن اضطراب الجغرافية - عبر الحروب أو التلوث أو التصحر أو الفقر - ينعكس مباشرة على أخلاق المجتمع وسلوك أفراده. فحين تنهار البيئة، ينهار معها جزء من الاتزان النفسي والقيمي.

الجغرافية الروحية وأثرها في تكوين الإنسان العراقي

لا يمكن فهم العراق بوصفه أرضاً سياسية أو جغرافية فحسب، لأن هذه البلاد حملت عبر التاريخ معنى يتجاوز حدود التراب والمكان، حتى تحولت في الوعي الديني والاخلاقي إلى "جغرافية مقدسة"، ارتبطت بالنبوات والرسالات والأولياء والشهداء، فالعراق، في نظر كثير من العارفين والمتصوفة والمفسرين، ليس مجرد أرض سكنتها الحضارات، بل أرضٌ سكنتها التجليات الروحية، حتى غدت جزءاً من الذاكرة المقدسة للإنسانية.

ومن هنا ظهرت فكرة "العراق بوصفه الوادي المقدس"، وهي فكرة تستند إلى كثافة الحضور النبوي والروحي في هذه الأرض، وإلى ما ورد في عدد من الروايات والتفسيرات التي تربط بعض الإشارات القرآنية بأرض العراق، ولا سيما منطقة النجف، ففي القرآن الكريم يخاطب الله تعالى النبي موسى بقوله: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾.

وقد ذهب عدد من أهل العرفان وبعض الروايات التراثية إلى أن "الوادي المقدس طوى" ليس مجرد موضع جغرافي عابر، بل رمزٌ لأرضٍ بلغت من الطهارة الروحية منزلةً خاصة، وربط بعضهم هذا الوادي بأرض النجف، باعتبارها موضعاً للنبوات والأوصياء ومهبطاً للسكينة الإلهية، وهذه الرؤية، وإن لم تكن محل اتفاق تفسيري عام، تكشف عن المكانة الروحية العميقة التي احتلتها أرض العراق في الوجدان الإسلامي.

فالنجف، التي تضم مرقد الإمام علي بن أبي طالب، لم تكن في المخيال الروحي مجرد مدينة، بل "أرض معرفة"، إذ يرى كثير من العارفين أن وجود الإمام علي فيها منحها بعداً روحياً خاصاً، لأن الإمام علي يمثل في الفكر الإسلامي نموذج الحكمة والعدالة والتوحيد العميق.

كما ترتبط أرض العراق بسلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين، إذ تُنسب مدينة أور العراقية إلى مولد إبراهيم الخليل، ومنها انطلقت دعوته الكبرى إلى التوحيد وكسر الأصنام، وكأن العراق شهد منذ بداياته أول صراع بين الحقيقة والوثنية، وبين نور الروح وسطوة المادة.

وتحضر كذلك قصة نوح والطوفان في الذاكرة الروحية للعراق، حيث ترى بعض الروايات أن مرحلة ما بعد الطوفان ارتبطت بأرض الرافدين وما حولها، مما جعل العراق يبدو في الوعي الديني كأنه نقطة بداية جديدة للإنسانية بعد الخراب العظيم.

ثم توالى على هذه الأرض مسيرة الأوصياء والأولياء والأئمة، حتى أصبحت مدن العراق الكبرى محاور روحية للعالم الإسلامي، فكبلاء تحولت إلى رمز كوني للتضحية والعدالة بعد استشهاد الإمام الحسين بن علي، بينما غدت الكاظمية وسامراء واحات للروح والعلم والانتظار.

إن كثافة هذه الرموز المقدسة جعلت الإنسان العراقي يعيش علاقة مختلفة مع الأرض، فهو لا يراها مجرد ملكية مادية، بل فضاءً مشبعاً بالذاكرة الروحية. ولذلك ارتبطت الشخصية العراقية تاريخياً بالنزعة الدينية والعاطفية والتأملية، لأن الإنسان الذي يعيش في أرضٍ تمتلئ بالمراقد والقصص النبوية والمواسم الروحية، يتشكل وجدانه بطريقة مختلفة عن أي مجتمع آخر.

ومن منظور علم النفس الاجتماعي، فإن "قداسة المكان" تؤثر في بناء الهوية والانفعال الجمعي، إذ تمنح الإنسان شعوراً بالانتماء لمعنى أكبر من ذاته الفردية، ولهذا نرى العراقي - رغم ما مرّ به من حروب وآلام - يحتفظ بطاقة روحية عالية، تتجلى في الصبر، والتمسك بالمقدسات، والقدرة على تحويل الحزن إلى طقس أخلاقي وروحي.

خاتمة

إن العراق، وفق هذه الرؤية، ليس مجرد وطن يسكنه الناس، بل أرض تُربي الروح، وتدفع الإنسان إلى مواجهة أسئلته الوجودية الكبرى. ولهذا بقيت هذه البلاد، رغم ما أصابها من حروبٍ وخرابٍ وانكسارات، محتفظةً بجاذبية روحية فريدة، لأنها في الوجدان الديني ليست أرضاً عادية، بل موضعاً مرّت به خطى الأنبياء، واحتضنت أجساد الأوصياء والأئمة والشهداء، حتى أصبح ترابها نفسه جزءاً من الحكاية المقدسة للإنسان. ولعلّ هذا البعد الروحي العميق هو ما منح الإنسان العراقي قدرة استثنائية على الصمود والإبداع، إذ لم تمنعه قسوة الجغرافية وتقلبات التاريخ من إنتاج الشعر والفكر والفلسفة والفن، بل ربما كانت المعاناة نفسها سبباً في ولادة هذا الوعي الحاد بالحياة والمعنى. فالأرض التي شهدت الطوفانات والحروب والمآسي، صنعت إنساناً أكثر التصاقاً بالأسئلة الكبرى، وأكثر بحثاً عن العدالة والخلود والجمال. ومن هنا لم يكن الحزن العراقي مجرد انفعال عابر، بل ذاكرةً جمعية تراكمت عبر آلاف السنين، انعكست في الأدب والرثاء والتدين والحنين، حتى غدا الوجدان العراقي مزيجاً فريداً من الألم والرجاء، ومن الثورة والتأمل، ومن الحنين إلى السماء رغم ثقل الأرض. لقد كانت جغرافية العراق شريكاً حقيقياً في صناعة الشخصية العراقية نفسياً وأخلاقياً وروحياً، فالنهر، والصحراء، والخصب، والحرب، والمراقد المقدسة، والموقع المفتوح على الغزوات والحضارات، كلها عناصر تداخلت لتشكّل إنساناً شديداً التعقيد والحيوية، يحمل في داخله تناقضات التاريخ وعبقريّة البقاء. ولهذا فإن نهضة العراق لا يمكن أن تتحقق عبر السياسة والاقتصاد وحدهما، بل تبدأ أيضاً بإعادة ترميم العلاقة بين الإنسان وأرضه، لأن الأرض المرهقة تُنتج أرواحاً متعبة، بينما تصنع البيئة الآمنة والمستقرة إنساناً أكثر اتزاناً ورحمةً وقدرةً على البناء. فالجغرافية ليست تراباً صامتاً، بل قدرٌ نفسي وأخلاقي وروحي يسكن الإنسان بقدر ما يسكنها، والعراق يبقى واحداً من تلك الأمكنة النادرة التي لا تُقرأ بوصفها أرضاً فقط، بل بوصفها تاريخاً للروح الإنسانية وهي تبحث، وسط الألم والقداسة، عن معناها الأبدي.

تأسس مركز الفيز العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية في بغداد بموجب شهادة التسجيل الصادرة عن الأمانة العامة لمجلس الوزراء -دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة (1J775330) بتاريخ ٢٦/٤/٢٠١٢، وهو مركز علمي بحثي يهتم بإجراء الاستطلاعات والدراسات الميدانية فضلاً عن إعداد الأوراق البحثية والمقالات حول قضايا الحياة المجتمعية للأسرة والمواطن، والدولة بمؤسساتها المختلفة.

- لا يجوز نشر أي من إصدارات المركز ونتائجته العلمية الا بموافقة خطية صريحة ويمكن الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملاً.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز الفيز العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

للتواصل

00964- 7710122232



Alfaydhcenter2011@gmail.com



www.al-faydh.com



العراق - بغداد - الكرادة

